مقدمة

من المنطقى أن تلجأ التقارير الخاصة بحصاد العلم فى عام من الأعوام إلى سرد الأحداث والقصص العلمية منذ بداية العام إلى نهايته . ومن المنطقى أيضاً أن تبدأ بقصص النجاح قبل قصص الفشل . ونادراً ما يتضمن الحصاد قصص العجز . لكن ذلك لا يبدو منطقيا فى حصاد ٢٠٠٤ . فالبداية فى الحديث عنه يجب أن تبدأ من نهاياته ، والقصة التى تحملها هذه النهايات هى قصة عجز ، وليست قصة نجاح أو فشل .

إن ذلك لا يعنى بالطبع غياب قصص النجاح والفشل عبر العام ، أو فى نهاياته التى نتحدث عنها . لقد شهدت نهايات العام مثلا عودة الحديث عن أخلاقيات الاستنساخ بعد الإعلان عن النجاح فى إستنساخ قطة مقابل خمسين ألف دولار ، بناء على طلب سيدة أرادت أن تحصل على نسخة جديدة من قطتها الحبيبة المتوفاة . كما حملت هذه النهايات الجديد فى تكنولوچيات التكاثر من الأجنة المجمدة لفترة طويلة أو حمل العجائز . وظهر الجديد فى «تكنولوچيات المخ» ، وهى من أحدث وأهم التكنولوچيات ، حيث أدى زرع رقيقة من الرقائق

الإلكترونية إلى قدرة إنسان مشلول على تشغيل الكمبيوتر «بأفكاره» ، وذلك يعد تطويراً أو تثويراً لهذه التكنولوجيات ، بعد نجاحات سابقة للتشغيل برموش العين أو اللسان ، اللذان يقتضيان تدريباً جاداً . وفشلت رحلة «جنسس» ، التى يعنى إسمها الخلق أو التكوين ، التى كانت تستهدف الحصول على عينة من الغبار الشمسى لو صحت التسمية لدراسة نشأة المجموعة الشمسية ، لكنها ارتطمت عند عودتها . ويحاول العلماء إستنقاذ بعض ما حملته من جسيمات شمسية ، لتساعدهم فى إتمام الدراسة . وهذا لا يمنع النتائج الإيجابية لرحلات أخرى قامت بها «ناسا» عن طريق مركبات غير مأهولة أيضاً ، حيث تقوم الروبوطات بالعمل نيابة عنا .

لكن كل قصص النجاح والفشل تتوارى أمام قصة العجز الهائلة التى ظهرت بعد السادس والعشرين من ديسمبر ٢٠٠٤ ، كنتيجة للزلزال الذى ضرب جنوب شرق آسيا بقوة ٩ ريختر ، وما أحدثه من مد بحرى هائل .

إننى أكتب هذه المقدمة وأعداد الضحايا تتزايد فى كل يوم ، مع الإعلان عن أن الحصر الكامل قد لا يكون ممكنا .

إن الأرقام المعلنة حتى نهاية الأسبوع الأول من يناير ٢٠٠٥ تتجاوز ١٦٥ ألفا(*) ، عدا عشرات الآلاف من المفقودين وأكثر من نصف مليون مصاب وخمسة ملايين مشرد . قد تحركت الجزر وأنهارت البنية الأساسية ، وصار التعرض للأمراض والأوبئة أمراً شديد الاحتمال . ولمواجهة الكارثة ، سارعت الأمم المتحدة لحث الجميع على المساعدة ، وكانت الدولة الأقوى والأغنى هى الأكثر ترددا وشحاً . لقد بدأت بعرض ملايين قليلة ، زادتها تدريجياً . وظهر ذلك أيضاً فى المساهمات الأهلية . إن متوسط ما إستعد المواطن الأوروبى لدفعه حتى الآن بلغ رقماً قياسياً ، خمسون يورو للفرد ، فى مقابل دولار واحد للمواطن الأمريكى . وبصرف النظر عن الدلالة السياسية والإنسانية لذلك ، فإن البشرية قد دفعت ثمناً فادحاً لعدم الإستعداد الكافى لمواجهة الكوارث الطبيعية .

ويعنينا هنا ، ونحن نتحدث عن حصاد العلم ، الإشارة إلى

(*) فى الأسبوع الثالث من يناير تجاوز عدد ضحايا إندونيسيا وحدها هذا الرقم .

العجز المذكور فى بداية هذه المقدمة . إننا ننفق الكثير على أسلحة الدمار الشامل ، التى تربط بعض التقارير بشكل مباشر أو غير مباشر بينها وبين زيادة إحتمال الكوارث الطبيعية ، ولا ننفق على زيادة قدرة العلم على التنبؤ بالكوارث ومواجهتها بنفس «الكرم» . بل أن التقارير قد أشارت إلى أن المنطقة المنكوبة قد حدث بها نشاط بشرى أثر على مقومات الحماية البيئية الطبيعية وأدى إلى زيادة فداحة الكارثة ، التى شبهت بالطوفان . ولقد آن الأوان إلى أن نراجع أنشطتنا السلمية والحربية لصالح مستقبل أكثر أمناً وقدرة على مواجهة الكوارث الطبيعية . وإن لم نفعل ، سنواجه بين الحين والآخر بمثل هذا الحصاد المر ، الذى وصفته مجلة «الإيكونومست» على غلافها بعبارة «نهاية العالم» . لعلها لم تكن كذلك بالضبط ، لكن أمنا الأرض ما زالت «تتأرجح» من هول ما أصابها . قد يكون ما حدث فوق طاقتنا وطاقتها ، ولكن لا عذر لنا فى أن نفعل كل ما فى طاقتنا ، وهو ليس بالقليل .